ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد:10، العدد: 02(2025) ص: 157 - 168

تجليات الرّمز الأسطوريّ عند إبراهيم الكوني ـ روايتيْ "التبر" و "نزيف الحجر" أنموذجا

Manifestations of the mythical symbol in Ibrahim Al-Koni's novels "The Gold" and "The Bleeding of the Stone" as an example

ط.د، فؤاد بركات
مخبر الشعرية الجزائرية
جامعة محمد بوضياف ـ المسيلة (الجزائر)
fouad.barkat@univ-msila.dz

أ.د عبد الرحمان بن يطو
مخبر الشعرية الجزائرية
جامعة محمد بوضياف ـ المسيلة
Aberrahmane.benyettou@univ-msila.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2025/06/27
تاريخ القبول:
2025/12/02
تاريخ النشر:
2025/12/21

الكلمات المفتاحية:
- ✓ **الرمز الأسطوري**
- ✓ **الرواية**
- ✓ **التبر**
- ✓ **نزيف الحجر**

الملخص:

تعد الأسطورة من أقدم أشكال التفكير البشري، استخدمها الإنسان البدائي لتفسير الظواهر الغامضة حوله، مثل الخير والشر، الحياة والموت، والوجود والعدم .تعكس الأساطير هواجس الإنسان ومخاوفه الدينية والاجتماعية، وتجسد صراع قوى الخير والشر المؤثرة في حياته ومصيره .تمثل الأسطورة جزءاً أساسياً في تشكيل وعي المجتمعات البدائية، وتُظهر قيمها وطموحاتها وأسئلتها الوجودية .إلى جانب دورها التفسيري للطبيعة، أصبحت عنصراً ثقافياً وفنياً يُغني الأدب برمزية فلسفية.

.في الأدب العربي الحديث، استُخدمت الأسطورة بشكل مميز مع التحولات الفكرية والسياسية في القرن العشرين .لجأ أدباء كثر إلى توظيفها لإعادة تصوير الواقع من زوايا جديدة تجمع بين الماضي والمستقبل. أضافت لمسة إبداعية على النص الروائي العربي، ومنحت الرواية عمقاً شعرياً يعبر عن قضايا مثل الهوية والصراع الأبدي بين الخير والشر .هذه الورقة البحثية تسلط الضوء على مفهوم الأسطورة وأبعادها الفنية والجمالية في الروايات العربية، من خلال مدونة إبراهيم الكوني.

Article info

Received
27/06/2025
Accepted
02/12/2025
Published
21/12/2025

Keywords:
- ✓ *The mythical symbol*
- ✓ *The novel*
- ✓ *The dust*
- ✓ *Stone bleeding*

Abstract :

Myth is one of the oldest forms of human thought, used by primitive man to explain mysterious phenomena such as good and evil, life and death, existence and nothingness. Myths reflect man's religious and social concerns and fears, and embody the struggle between the forces of good and evil that influence his life and destiny. Myths are an essential part of shaping the consciousness of primitive societies, reflecting their values, aspirations and existential questions. In addition to its explanatory role in nature, it has become a cultural and artistic element that enriches literature with philosophical symbolism. In modern Arabic literature, myth has been used in a distinctive way with the intellectual and political transformations of the twentieth century. Many writers used it to reimagine reality from new angles, combining the past with the future. It added a creative touch to the Arabic fiction text and gave the novel a poetic depth that expresses issues such as identity and the eternal struggle between good and evil. This paper sheds light on the concept of myth and its artistic and aesthetic dimensions in Arabic novels, based on the works of Ibrahim Al-Koni

1. مقدمة

تُعدّ التجربة الروائية للروائي الليبي إبراهيم الكوني واحدة من التجارب المتفرّدة في الكتابة السردية العربية المعاصرة، فهو من الذين استفردوا بأسلوب سرديّ مُختلف؛ إذْ سخّر مخيلته الروائية لعوالم خرافية تضرب بجذورها في أعماق التاريخ البشري فاجتمع في أعماله الواقعي بالمتخيّل، والخفي بالمتّجليّ، والحاضر بالغائب، والتاريخي بالآنيّ، ومن هذه العناصر كانت مادته القصصية الأولى التي يمتح منها عوالمه التّخييلية ذات الطابع العجائبي، فاستنطق رسومات التاسيلي المنحوتة على الصخر العتيق منذ آلاف السنين، وبعث فيها الحياة من جديد ليجعل منها كائنات تتكلّم و شخصيات تتحرك، فيها كثير من الإسقاط (**projection**) على الراهن في كلّ مظاهره وتجلياته الفلسفية والأنتروبولوجية (**Anthropologie**)، فمجتمع الطوارق من أكثر الجماعات البشرية حضورا في التاريخ بكلّ مكوّناته البيئية وعناصره الثقافية والاجتماعية والسياسية، ولذا هو مجتمع جدير بأن يكون مادة قصصية يستلهم منها الفنانون والمبدعون بمختلف مشاربهم وتصوّراتهم الإبداعية وتمثّلاتهم الفنية لما يزخر به نمط الحياة عند مجتمع التّوارق من تحديات تقتضيها طبيعة البيئة التي يعيشون فيها، ومن هنا جاءت الأساطير كأنموذج تصوّري وتمثّلي للوجود عند الإنسان التارقي وما تدرّه مخيلته من محكيات وسرديّات تروي انتصارته وانكساراته في الحياة عبر العصور.

لكن ورغم تعدد الأساطير في روايات الكوني، فإنها تجتمع حول محور أساسي يتمثل في العلاقة الغامضة بين الإنسان وبعض الكائنات الأسطورية الأخرى، ويذهب عبد الله إبراهيم إلى القول "بأنه لو رتبت هذه الأساطير وفق أنساق محددة لشكلّت مجموعة ما يمكن الاصطلاح عليه "ميثولوجيا الطوارق": ميثولوجيا متنوعة العناصر يتبوّأ فيها الإنسان بهمومه وحيرته وتطلعاته الموقع الأول، ذلك الذي لا يجد أنيسا فيختار مضطرا الحيوان رفيقا له، يبثه لوعاته وعزلته، ثمة تساوق مثير للانتباه في مستوى القيمة الممنوحة للحيوان والإنسان في روايات الكوني".(إبراهيم عبد الله ، 2005، ص4.)

تُشكل الصحراء في أدب الكوني فضاءً أسطوريًا تتشابك فيه مفاهيم الهوية والوجود والعدم، فتتجسد الأسطورة في رموز الطبيعة كالحجر، والتبر، والحيوان، وتغدو الرواية عنده مشهدًا كونيًا تتداخل فيه الأقدار والأسئلة العابرة للمكان والزمان، وتتجلى هذه الرؤية بوضوح، حيث تتداخل الأسطورة مع الواقع، لتكشف عن فلسفة إبراهيم الكوني الخاصة بالإنسان، والكون والمصير.

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن تَمَثّلات الرمز الأسطوري في المتخيل السرديّ عند إبراهيم الكوني من خلال روايتَيْ "التبر" و"نزيف الحجر"، من الملاحظ أنّ المخيّلة السّرديّة عند الكوني مأهولة بالرموز والدلالات التي تشكّل دينامية السّرد في المتن الكوني، مثل الصحراء، الجمل، الحجر، الدم، والصيد، ورسومات لحيوانات خرافية، حاول الروائي توظيفها بطريقة مبتكرة تثير أسئلة أنطولوجية وقضايا فلسفية كبرى تتجاوز حدود المكان، كالصراع بين الإنسان والطبيعة، الحرية والعبودية، القدر والعدم ، والوجود والحياة والموت، كما تسعى هذه الدراسة من جهة أخرى إلى الوقوف عند فاعلية الرمز الأسطوريّ في تشكيل هوية الفضاء الصحراويّ في الرواية العربية الحديثة، وكيف يُعيد الروائي بناء معمارية الحدث من خلال ملامح الشخصية الصحراوية الغائرة في الوجود ككائنٍ معلّقٍ بين الماضي البعيد والواقع بكلّ تطلعاته.

تنطلق هذه الدراسة من فرضية أن إبراهيم الكوني وظّف الأسطورة ليس بوصفها حكاية تراثية جامدة، بل كأداة فنية متفاعلة تعيد تشكيل الرواية وتمنحها أبعادا روحية وثقافية وفلسفية، وذلك من خلال خلق عوالم روائية مشبّعة بالرموز والدلالات، بما يعكس رؤيته للإنسان والصحراء والوجود، ومن هذا المنطلق يحاول هذا البحث أن يجيب عن التساؤلات الآتية:

- ما الأبعاد الرمزية والفلسفية التي تحملها الأسطورة في روايات إبراهيم الكوني ؟

- كيف ساهمت الأسطورة في بناء الهوية الصحراوية في النص الروائي ؟
- كيف وظف إبراهيم الكوني الأسطورة في روايتيْه "التبر" و"نزيف الحجر" ؟
- ما أثر هذا التوظيف في بناء الشخصيات، والأحداث، والفضاء السردي ؟

للإجابة عن هذه التساؤلات النقدية، اقترحت المنهج الوصفي التحليلي الذي يعتمد على آلية ثنائية تكمّل إحداهما الأخرى، الأولى تصف والثانية تحلّل،كلّ ذلك من أجل استنطاق النص الروائي واستشراف أبعاده الفنية والجمالية المتوارية المثقلة بالتراث الأسطوريّ الصحراويّ من خلال روايتيْ "التبر" و"نزيف الحجر".

2.الصحراء والأسطورة في السّرد الروائي عند الكوني:

إبراهيم الكوني من الروائيين العرب القلائل الذين يملكون معرفة موسوعيّة بالصحراء وأسرارها الأنطولوجيّة التي تتجاوز الأبعاد الجغرافية فقد "استطاع الكوني بقدرته الفنية العالية أن يجعل الصحراء فضاء أسطوريا ثريا برموزه، وطبقاته الدلالية العميقة محولا قحطها إلى جنة أسطورية في عالمه النصي المتخيل مستنطقا أحجارها وكهوفها ورمالها وشمسها وحرها"(عتيق مديحة، ص4) فهو يوظف الأسطورة ليس بوصفها مادّة تراثيةً جامدة، بل كأداة فنية تعيد تشكيل الرؤية وتمنحها أبعادًا روحية وثقافية وفلسفية، من خلال خلق عوالم روائية مشبّعة بالرموز والدلالات، بما يعكس إعادة قراءة الإنسان لفضاء الصحراء و من خلاله الوجود.

ومن هنا،كان الفضاء الصحراوي المتماهي مكانيا وتاريخيا، يتقاطع فيه الحيوان في بُعده الخُرافي المقدس مع الإنسان في علاقة طقوسية عجائبيّة روّض فيها إبراهيم الكوني الطبيعة الصحراوية بمظاهرها الجامدة والمتحركة؛ حيث تتنافر الأشياء لتتآلف في الأخير، وقد ارتأينا في هذه الورقة البحثية أن نقترح نموذجا من أعمال الكوني الذي يتمثل في رواية (نزيف الحجر)، التي تتكوّن من قصتيْن أساسيتيْن تنهض عليهما أحداث الرواية بطريقة متوازيّة، تشتغل كل واحدة على حده لتصنع المشهد العام للرواية وذلك من خلال اثني عشر جزءا، لعبت فيها الطوطميّة (Le totémisme) دورا ديناميا في حركة السّرد، والطوطمية هي من الطقوس المعروفة عند القبائل البدائيّة، والتي يعتقد أصحابها اعتقادا راسخا في بعض الأشياء المحيطة بهم في الطبيعة كالحيوان و الشجر، ويعرفها الأستاذ محمد عبد المعين خان بقوله و" يُراد بها كائنات تحترمها بعض القبائل المتوحشة، ويعتقد كلّ فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين واحد منها يُسميه طوطمة، وقد يكون الطوطم حيوانا أو نباتا وهو يحمي صاحبه ويبعث إليه الأحلام السعيدة، وصاحبه يحترمه ويقدسه، فإذا كان حيوانا لا يقدم على قتله، أو نباتا لا يقطعه ولا يأكله إلا في الأزمة الشديدة".(عبد المعين خان محمد، 1937، ص57)، وقد أسهم إبراهيم الكوني بإبداعاته الروائية في إثراء المنظومة السّرديّة العربية من خلال مشروعه الجديد (أنتروبولوجيا السرد الصحراوي)، والذي يتميز عن السرد الصحراوي عند عبد الرحمن منيف كون الأول غاص في أعماق التاريخ حتى لامس تخوم الأسطورة بينما اكتفى الثاني بوقائع تاريخية وسياسية وقعت أواخر القرن العشرين في بلاد الحجاز، والتّحوّلات البنيويّة التي عرفتها المجتمعات الخليجية بعد اكتشاف ثروة النفط من طرف الشركات الخليجية.

وقد حرص الكوني اختيار شخصياته الروائية بعناية؛ وهي مستمدة من تاريخ المنطقة ومسخّرة لخدمة الحاضر بكل تفاصيله الواقعية، فهي "شخصيات موجودة على حافة الحياة دائما، وكأنما في صراع أبدي مع الموت دائما، لا وقت لديها للتفكير إلاّ بما يحفظ استمرار حياتها، ويحفظها في مواجهة الفناء،كل شيء في المجتمع الصحراوي آكل أو مأكول، وكل شخص فيه قاتل أو قتيل، حياة أو موت، وحين يكون الخيار الوحيد أمام الشخصية هو الوجود في رؤية مكانية منبسطة مشغولة بمقاومة الموت، ولهذا السبب فإن المجتمعات الصحراوية مجتمعات بلا زمن، تعيد إنتاج نفسها باستمرار، بطريقة واحدة وكأنها موجودة في الأبد، هكذا يملي المكان نوعا محدّدا من الزمان الدائريّ ويفرضه في هذه البيئة".(الغانمي سعيد، 2000، ص14)، فالمتن الكوني يتأسّس على جملة من العناصر الأساسية، التاريخ القديم، الصحراء كفضاء عام، الأسطورة كمحرّك ديناميكي، رسومات التاسيلي، الحيوانات الخرافية، الصراع بين قوى الخير والشر،

المعتقدات الطوطمية المتفشية بين قبائل الطوارق التي روّضت الصحراء رغم قساوتها. "وتتميز رواياته عن غيرها من الروايات التي تناولت الصحراء باهتمامها بالعودة إلى الماضي السحيق للصحراء، والكشف عن أساطيرها ورموزها، ورمالها التي سطّر عليها الأسلاف تعاويذهم، ورقاهم، وتمائمهم السّحرية ".(وتار، محمد رياض، 2002، ص218)، وهذا ما يجعل كتابات الكوني متميزة عن غيرها ويحفظ لها خصوصيتها وتفردها.

ففي رواية (نزيف الحجر) مثلا، حوّل الكوني الأسطورة إلى لغة فلسفية تأملية تشرح علاقة الإنسان بالطبيعة والمصير الذي ينتظرهما، من خلال قصة الراعي وقطيع الماعز، حيث تمثل الشخصيات تجسيدًا رمزيًا لقيم الصراع بين الإنسان والكون، وبين الحرية والقيد، يظهر حضور الأسطورة في وصف الأماكن مثل الكهوف والجبال، وفي تصوير الحيوانات كرموز للكائنات الأسطورية، مثل الكبش الذي يصبح رمزًا للتضحية والخلود، والصحراء التي تمثل عالماً روحيًا يتجاوز الإدراك المادي.

أمّا رواية (التبر) فهي من أبرز روايات إبراهيم الكوني التي تُجسد الفضاء الأسطوري للصحراء، حيث تتشابك الأسطورة، الرمز، والموروث الثقافي لشعب الطوارق، تدور أحداث الرواية حول (أوخيد)، الفتى البدوي الذي تربطه علاقة روحية وعاطفية عميقة بجمله المهري (الأبلق)، وهو رمز للحرية والوفاء في مواجهة قسوة الصحراء وقوانينها الصارمة، يجد (أوخيد) نفسه ممزقًا بين حبه لزوجته (أيور) ووفائه لصديقه المهري، ليخوض صراعات مع قبيلته، مع (دودو) الذي يستغل ظروف المجاعة ليأخذ منه زوجته مقابل حَفنات من التبر، ومع ذاته التي تبحث عن الانتماء والحرية، تُبرز الرواية الرموز الغنية، مثل المهري رمزًا للحرية، والتبر رمزًا للطمع والفساد، والأنثى رمزًا للفتنة واللعنة، في حين تُصوَّر الصحراء كفضاء أسطوري مطلق يجمع بين الصفاء والمأساة، يستخدم الكوني لغة شعرية محملة بالحِكم والرموز، وينسج عالماً تتداخل فيه الأسطورة والواقع، ليُقدم نقدًا فلسفيًا لمفاهيم الملكية، القدر، والتمرد على التقاليد، فرواية "التبر" ليست مجرد قصة، بل هي تأمل في مصير الإنسان في مواجهة قوى أكبر من ذاته.

3. الرموزوالدلالات الأسطورية في روايتي "نزيف الحجر" و"التبر":

1.3 الرموزوالدلالات الأسطورية في رواية " نزيف الحجر" :

تمثل رواية "نزيف الحجر" النموذج الساطع في استقصاء تفاصيل عالم الصحراء وميثيولوجيا الطوارق ومخيلتها، حيث تتأسس بتألق فريد على التشكيل الغرائبي لفضاء روائي يمظهر النضج الفني والرؤيوي اللذين طرآ على اللغة الواقعية للرواية الحديثة، وذلك بقصد البناء الفني لعوالم الميثولوجية الصحراوية التي يعيد الكوني صوغها بوحي خبرته الثقافية في اكتشاف روحية إنسان الصحراء، واستشراف عوالمه الذاتية، وسبر فيض قلقه البدائي الفطري"(زغريت خالد، 2011، ص8)، لقد ربط الكوني في العنوان بين وحدتين مُعجميتين متناقضتيْن هما (نزيف)و(الحجز)، إحداهما تدل عن الحركية والحياة والثانية عن الجماد والموت، وأراد الكوني بالحجر الرسومات المنقوشة على الحجر في التاسيلي والتي ترمز لهُوية المكان وتراثه العريق، غير أن هذه الرسومات تعاني التلف بفعل العوامل الطبيعية القاسية من جهة، وبفعل الإهمال البشري من جهة أخرى، فتتجسد هذه الصخور وكأنها كائنات حية تنزف دما ومهددة بالموت والزوال مع مرور الزمن، وتصور هذه الرواية في تفاصيلها "العلاقة القائمة بين الإنسان وغيره من المخلوقات حيث يصعّد الكوني هذه العلاقة حتى يحل الحيوان حيوان الصحراء محل الإنسان ويحل الإنسان في الحيوان، وتتمثل مادة الحكاية في سر العلاقة التي تقوم بين الشخصية المحورية في الرواية (أسوف) و الودّان، وهو تيس جبلي تقول لنا الكتب إنه انقرض منذ بدايات القرن السابع عشر ولكنه ظل موجودا في الصحراء الكبرى، ثمة غموض يحيط بهذا الحيوان الذي يقول عنه أسوف إنه روح الجبل، فهو يعتصم بالجبل إذا طردوه، وفي لحمه يكمن سر من أسرار الوجود، كما يقول شيوخ الصوفية، وتقوم بين أسوف والودان علاقة سرية معقدة يحل فيها الودّان في جسد أسوف ويرى فيه الأخير أباه الذي صرعه الودّان لأنه لم يحافظ على عهده بعدم صيده ".(الصالح فخري، 2009، ص148)، تدور أحداث الرواية حول

الصراع الأزلي بين بني البشر أنفسهم من جهة، وبين صراعهم مع الطبيعة وظروفها الصعبة من جهة أخرى، وقد صوّر لنا الكوني هذا الصراع في سياق علاقتين محوريتين:

الأولى تتمثل في العلاقة الروحية بين أسوف و الودَّان، هذا الحيوان الذي يتقمص دور الأخ بالدم بعد وفاة الأب، تتطوّر هذه العلاقة لتكتسب بعدا أسطوريا يحاكي أساطير القرابين والخصب التي عرفتها حضارات وادي النيل وبلاد الرافدين، ف"كل هذه الأساطير تتضافر لتجسد في النهاية مشهدا من مشاهد أساطير الخصب وحلول القتيل في جسد الأرض العطشى مما يرجع صدى أسطورة الخصب بنسختها الفرعونية والفينيقية والرافيدينية"(الصالح فخري، ص151) فامتزاج دم أسوف بصحراء قاحلة ليبعث فيها الحياة وكأنها رمز لإخصاب جسد الصحراء القاحلة ويمنحها حياة جديدة.

أما الثانية فتتمثل في حكاية (أسوف) مع (قابيل)، آكل اللحم النيء منذ طفولته بعدما تغذى على دم الغزالة بدلاً من ثدي أمه، تحاكي هذه القصة أسطورة قابيل وهابيل حيث "يُروى أن القاتل الأول على الأرض رفض أن يرضع حليب الأمّ عند الميلاد، خاف الأبوان آدم وحوّاء على مصير الطّفل، فظهر لهما الشّيطان في مسوح عابر سبيل، لينصحهما بدهن شفتيّ الطفل، الوليد بدم معزاة سوداء، أخذ الأبوان بالنصيحة، فرضع الطفل الثدي، وكبر قويّ الجسم، ولكنّه ترعرع شريرا أيضا، فانتهى به المطاف لقتل أخيه"(الكوني إبراهيم، نزيف الحجر، 1992، ص153) والقصة هنا ترمز إلى الصراع الأزلي بين البشر، لا سيما ذلك التصادم الذي ينشأ بين الأخ وأخيه، وهو ما يحاول الكوني أن يجسده من خلال روايته.

في هذه الرواية يقوم الكوني بتوظيف الأسطورة توظيفا عضويا، حيث تُشكّل هذه الأخيرة جزءًا أساسيًا من نسيج العالم الروائي بكل تفاصيله، يقوم النص الروائي على بنية أسطورية تتماهى فيها أحداث الرواية مع أحداث الأسطورة، مُظهرة انسجاما واضحا بينهما، إن الضرورة الملحة لاستلهام النص التراثي لها مبررات عديدة، منها توجيه انتقاد للحضارة الحديثة التي تتعدى على الطبيعة وتنتهك حقوق الإنسان والحيوان على حدٍّ سواء، كما أن الكوني عمد إلى استعارة قصة (هابيل وقابيل)، ووظّفها بطريقة تتماهى فيها قصة النص الديني مع أحداث الرواية، مما يعزز من أبعادها الرمزية والفكرية.

يبدو أن الأسباب التي دفعت الكوني إلى اختيار قصة (قابيل وهابيل) وتوظيفها في رواية (نزيف الحجر) تنبع من رؤيته للتماثل بين ما وقع –من أحداث– في الماضي السحيق وبين ما يجري حاليا في الوقت الحاضر، هذا التشابه الذي أسهم بشكل كبير في خلق حالة من التماهي بين العالمين الأسطوري والواقعي، وتشكيل عالم واحد تلاشت فيه كل الحدود بين الأسطورة والواقع.

في الرواية، يُصوَّرُ قابيل كطفل فقد والديه فور ولادته، فأخذت خالته على عاتقها مهمة العناية به وتربيته والنظر في شؤونه، ولكنها بدلاً من الحليب تلجأ إلى إرضاعه من دم غزالة، وبعد فترة من الزمن، تموت هي الأخرى، ليجد قابيل نفسه في عهدة رب القافلة (آدم)، ومع تبني هذا الأخير له، تتوالى عليه سلسلة من المصائب والنكبات، وتحل عليه اللعنة، كأن وجود قابيل يحمل معه شؤمًا غامضا، وتعليقا على هذه الحادثة يقول الباحث ميكولسكي:"يُخيَّل لي أن "موتيف" إرضاع الدم للوليد الرضيع في الفلكلور العربي المعاصر، هو بمثابة إشارة تنبئ عن الشر والتعطش للدم في المستقبل، وفي هذا يكمن السرّ الذي يبرر ظهور هذه الحادثة في رواياتة الكوني"(يقطين سعيد، القراءة والتجربة، ص223) وهو ماينم عن ثقافة الكوني وسعة اطلاعة ومعرفته بالفلكلور الشعبي، وثقافة المجتمعات على اختلافها.

ولما رأى رب القافلة (قابيل) يأكل اللحم النيء من الطبق، وأسنانه تقطر دما، ذهب إلى السحرة والعرّافين الذين تنبأوا بأن قابيل سيأكل لحم الإنسان حين يكبر، وانتهى الأمر برب القافلة (آدم) إلى الموت بعد أن "مزقته قبائل "يم يم" بالحراب، وقطعته، وأكلت لحمه نيئا" (الكوني إبراهيم، 1992، ص93) وهو ما يعكس تعطش هذه القبائل إلى أكل لحوم البشر حسب ما ورد في الرواية.

في رواية "نزيف الحجر"، يعكس إبراهيم الكوني الحاضر بإسقاطه على الماضي، ويقرأ الواقع بلغة الرموز والأساطير، (قابيل) الذي يمثل الخطيئة الأولى في التاريخ البشري، يتجسد في كل إنسان يعتدي على أخيه الإنسان بغير حق، ما حدث في الماضي يتكرر اليوم؛ إذ نجد أنفسنا أمام واقع تتخذ فيه الحضارات القتل وسفك الدماء مهنا متوارثة أبا عن جد، (قابيل) الذي أدمن شرب الدماء، يظهر هذه المرة في شخصية حديثة تتقاطع مع (جون باركر)، الضابط الأمريكي الذي يوفر له سلاحا متطورًا يستهويه استخدامه في ممارسة الصيد وهي هوايته المفضلة، من خلال هذه العلاقة يكمل (قابيل) مسيرته في ارتكاب جرائم شنيعة بحق الطبيعة ممثلة في الحيوانات البريئة، ليشبع تعطشه الشديد لسفك الدماء، وشغفه –الذي لا تنتهي– لأكل اللحم النيئ، "فخروج قابيل ومسعود على طبائع الناس المألوفة، في أنّ قابيل لا يأكل إلا اللحم وكأنه يعيد تشكيل أسطورة قتله لهابيل بدلالة الشيخ آدم الذّي رباه بعد موت والديه وخالته وزوجها بعد ولادته لكنه يعود ليأكل لحم أسوف والودان في آخر الرواية مازجا بين الإنسان وروح الجبال"(النصير ياسين، 2008 ، ص34) ومع تصاعد الأحداث، تظهر مأساة أخرى عندما يقتل (قابيل) (أسوف) رمز البراءة والتصالح مع الطبيعة، (أسوف) يختلف تمامًا عن (قابيل)؛ فهو رمز النقاء والسلام، لا يتناول اللحم، يعيش بمعزل عن البشر، لا يعرف المال أو السلاح، ولا يعاشر النساء... في المقابل، يستمر قابيل في تدمير قطعان الغزلان دون أدنى اعتبار لقدسية الحياة أو القيم الإنسانية المرتبطة بها "في السابق كان يصطاد في الغزوة الواحدة غزالة واحدة، اثنتين إذا ابتسم له الحظ، أما الآن فانعكس الوضع، أصبح يصرع كل القطيع في غزوة واحدة، ولا تنجو سوى غزالة واحدة أو غزالتين، إذا حصل الحيوان المسكين على ابتسامة من الحظ"(الكوني إبراهيم، 1992، ص99–100) وهو ما يعكس الصراع الأزليَّ بين الشر المتجذر في النفس البشرية والخير المتجسد في البراءة والطبيعة.

استطاع الكوني بفضل براعة أن يوظف إرث الحكايات الشعبية المتداولة بين سكان الصحراء ليضفي عمقًا ثقافيًا وروحيًا على أعماله الروائية، من أبرز هذه الحكايات، أسطورة الودّان التي تعكس مكانته المقدسة في أعين أفراد القبائل، وحكاية الغزالة التي أدرجها الكاتب تحت عنوان "العهد"، وكأنها قصة قصيرة متداخلة ضمن الرواية، استوحى الكاتب هذه الحكايات، التي تتردد على ألسنة الحيوانات والتي تنبع من صميم البيئة الصحراوية، ليجسد من خلالها رمزية عميقة تتمثل في خيانة الإنسان للأمانة، ونقضه للعهود والمواثيق، وتجرُّده من الإنسانية،كما سلط الضوء على جشع الإنسان وسعيه لتدمير الطبيعة بدافع الطمع وإشباع شهوته بسفك الدماء، بهذه الطريقة قدّم الكوني رؤية فلسفية حول العلاقة المضطربة بين الإنسان والطبيعة بأسلوب يخاطب العقل والقلب في آن واحد.

فالرواية تتناول موضوعًا عميقًا يتحدث عن أولئك الذين يستخفون بالعهد المقدس المتوارث، ويتحللون من تبعاته، بل ويسخرون من معتنقيه، وفي هذا إشارة واضحة إلى خطر دائم يهدد بإبادة حياة كاملة وتراث عريق.

فجأة يجد قابيل نفسه غارقًا في أحزان عميقة تسيطر عليه، محاولًا التكفير عن خطيئته وجرأته على انتهاك العهد المقدس، لينتهي به الأمر معلقًا على الصليب، غير أنه يختار أن يحتفظ بسرّه دون الإفصاح عنه، أما الأب الذي يُعتبر آخر من يمثل إرث العهد، فقد "تغير منذ أن انتحر ذلك الودّان المكابر بين يديه، أصبح مهموما واجما كئيبا، يكثر من تزويد المواويل الوجدانية الحزينة، ويغفل عن مخاطبته عندما يتحدث معه أو يتوجه إليه بسؤال"(الكوني إبراهيم، 1992، ص 45)، إن "حزن الأب لا يعدو أن يكون ألماً مبعثه أن الحياة القاسية تجبره على أن يصطاد الودّان، وهو لا يريد أن يصطاد الودّان؟ " (الكوني إبراهيم، ، 1992،ص46)

وفي الرواية يتجسد الحيوان المقدّس في صورة الأب، الذي يرمز إلى الأسلاف "رأى أباه في عيني الودّان الصبور العظيم، رأي عيني الوالد الحزينين، الطيبتين اللتين لم تفهما لماذا يؤذي الإنسان أخاه الإنسان" (إبراهيم الكوني، نزيف الحجر، 1992، ص70.)

أما (أسوف)، الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بمفهوم القداسة من خلال علاقة طوطمية مع الودان، فإنه يميل إلى الانعزال، مفضلاً الانتماء إلى عالم الحيوان بدلاً من عالم الإنسان، "ثم أصبح يطلق على الأودية والشعب والجبال أسماء الأشباح الموسومة على صخورها:

فهذا وادي الغزلان، وتلك شعبة الصيادين، وذلك جبل الودان، وذلك سهل الرعاة، حتى اكتشف الجنّ الأكبر العملاق المقنّع المنتصب بجوار ودانه المهيب"(الكوني إبراهيم، 1992، ص11).

تُبرز الرواية شخصية البطل (أسوف)كضميرٍ أخلاقي مستمد من إرث الأجداد وتراث إنساني عريق، نابع من تفاعل تاريخي مع البيئة وباقي الكائنات الحية، هذا التراث، على الرغم من أصالته، إلا أنه يواجه خطر اندثار محتم، حيث تقف الطبيعة العزلاء في مواجهة حضارة مسلحة بأدوات الدمار، ومع اختلال التوازن الطبيعي نتيجة انتهاك العهد المقدس، تبدأ ملامح انهيار نظام الحياة في الظهور، تصل الرواية ذروتها عندما تتجلى الأزمة في صورة صراع أسطوري يسعى لتحقيق توازن بين (أسوف) و(قابيل)، مع إبراز رؤيتين متناقضتين تتباينان بوضوح عند اشتداد المواجهة بينهما بشكل مفاجئ، في إحدى اللحظات الحاسمة، يتحدث (أسوف) أمام (قابيل) مستخدماً عبارات استلهمها مسبقاً من والده، مما زاد من حدة التوتر بين الشخصيتين، وهو ما يعكس البعد الرمزي للصراع :"إن ابن آدم لن يشبع إلا بالتراب"(الكوني إبراهيم، نزيف الحجر، 1992، ص105) هذه العبارات كانت كفيلة بإشعال فتيل الصراع، وإثارة جنون قابيل، لتدفعه بعدها إلى صلب أسوف فوق إحدى الصخور واضعا له حدا لحياته.

من جهة أخرى، أدرك (قابيل) قصة العهد القائم بين الغزلان والبشر، ذلك الاتفاق الذي حُتم بدم الغزالة الأم المسنّة، والتي ضحّت بنفسها لتحقيق هذا العهد، غير أن قابيل لا يعترف بمثل هذه العهود، إذ يرى أن الطبيعة وجدت لكي يتمتع بها الإنسان ويستغلها وحتى يُفنيها، حتى جون باركر الذي كان طالباً في الدراسات الصوفية قبل أن يأتي مع شركات النفط والبحرية الأمريكية، وهو الشخص الذي ساعد قابيل في استخدام التكنولوجيا الحديثة لتحقيق شهوته المجنونة لأكل اللحوم وإبادة قطعان الغزلان بأكملها، انقلب في النهاية ضد (قابيل)" أنت يا قابيل تأكل الغلة وتسب الملة، والصحراء لم تطهرك لأنك لم تعشقها "(الكوني إبراهيم، 1992، ص 120) وفي لحظة من جنونه، أقدم قابيل على قتل ما خيّل إلى عقله المضطرب أنه الودان الذي طالما بحث عنه بشغف، ودق عنقه دون تردد، سال الدم بغزارة على لوح صخري، نقشت عليه الطوارق بلغتهم العبارة التالية:" أنا الكاهن متخندوش أَنبئ الأجيال أن الخلاص سيجيء عندما ينزف الودان المقدس، ويسيل الدم على الحجر، وتولد المعجزة التي ستغسل اللعنة، وتتطهر الأرض، ويغمر الصحراء الطوفان" (الكوني إبراهيم، 1992، ص 147)

ما نلاحظه من خلال ما سبق، هو أن الكوني قد اختار الكوني فضاءً طبيعيا يبدو في ظاهره مكانا موحشا ومتقشفا، وهو فضاء الصحراء، لكنه بفضل مهارته الفنية العالية حوّله إلى فضاء أسطوري رحب يعج بالرموز والدلالات العميقة "لقد أعطى الكوني مفهوما مغايرا للصحراء، حيث لم تعد الصحراء عنده ذلك المكان المرئي المفعم بالفراغ اللامحدود، بل غدت هي الرمز أو بالأحرى مجموعة من الرموز الحية وإيحاءات ثرية مكتنزة بالدلالات المتوثبة، الحاضرة والمؤجلة التّي تتوارى خلف تخومها النائية أسرار وأشجان وحنين وتصورات وفلسفة ومواقف من حقيقة الواقع والحياة والإنسان والوجود"(الكرومي، 2006 / 2005 ، ص 200.) فقد استطاع الكوني أن يحول جفاف الصحراء وجدبها إلى جنة أسطورية في عالمه النصي الخيالي المليء بالرموز الأسطورية والدلالات، حيث استنطق أحجارها وكهوفها ورمالها وحرَّها أو قرّها... فالصحراء رغم قساوة طبيعتها تظل مليئة بأساطيرها وأسرارها المبهمة التي لا تتيح للمبدع الدخول بسهولة إلى عالمها، ولا يسعى الكوني لاختراق هذا الفضاء الفسيح، بل هذه الأخيرة هي التي تسكن فيه وتسيطر على إيقاع قلمه وإبداعاته التي خالفت المألوف.

2.3 الرموزوالدلالات الأسطورية في رواية " التبر"

تندرج رواية (التبر) ضمن إطار روائي يعتمد على تجسيد عالم خاص، هو عالم الطوارق في صحراء الشمال الإفريقي الشاسعة، وهو عالمٌ ذو سمات متفردة في فلسفة الحياة وأساليبها دون شك، فيه تتوالد الأجيال وهي مشبعة بالقيم النبيلة والأخلاق الفاضلة التي تسمو بالإنسان وتميزه عن غيره من الكائنات، حياة تزينها البساطة والعفوية، وتكثرُ فيها الأغاني والأهازيج، وتتزاوج الأرواح، وتتكاثر،

وتموت، وهو ما يجسد العودة إلى الماضي السحيق، والبساطة التي كانت تزين حياة الأسلاف، وهو ما يصعب تحديد بداياته، إن المتأمل في الرواية –رواية التبر– يلاحظ أنه أمام دلالتين أساسيتين لها: الأولى تنبع من طبيعة العلاقة الموجودة بين الإنسان و باقي المخلوقات في بيئة صحراوية خالية من موجات التحول الحضاري الذي كثيرا ما يخالط مفاهيمه الزيف، فكل شيء فيها يظهر على حقيقته دون زيادة أو نقصان، وتبقى العلاقة بين الإنسان والحيوان علاقة من نوع خاص، وأما الثانية فهي التي تتشكل من خلال تنظيم اتجاه العلاقة الموجودة بين الإنسان والحيوان، وذلك بإعطاء صبغة إنسانية للحيوان، لتسمو به من المكانة الدنيا التي أسسها له الإنسان، فيسمو ليصبح ندًا وجوديًا للإنسان، يتسم بنوع من الوحدة الوجودية، وفي هذه الدلالة تتضح الأبعاد الرمزية جليا في الرواية.

تتمحور رواية "التبر"حول شخصية (أوخيّد) ، الذي تحدى قوانين الصحراء وسعى للتمرد عليها، لكنه واجه العذاب والنفي، حتى انتهى به المطاف إلى الموت، الرواية تعجّ بالرموز والدلالات العميقة ف"التبر" رمز للمدنس في مواجهة المقدس، والشرف مقابل الدناءة والذل والعار، وقد استخدم الروائي مفاهيم الفكر الأنثروبولوجي لوصف العلاقات الاجتماعية مثل الطوطمية...

تسلط الرواية الضوء على تأثير تقديس المدنس أو تدنيس المقدس، وكيف يؤدي ذلك إلى تدمير حياة المجتمعات الصحراوية، ففي هذه المجتمعات هناك اعتقاد سائد مفاده أن المساس بالقيمة الرمزية للذهب يورّث اللعنة ويؤدّي إلى سوء المنقلب، وهذا ما حدث ل(أوخيّد) حين قبل حفنة التبر من غريمه (دودو)، حلّت عليه اللّعنة وتلبّسه العار وأصبح منبوذًا من أبناء قومه ومطلوبا من أعدائه للاقتصاص والأخذ بثأرهم منه، وهكذا فقد (أوخيّد) الحياة التي كان يسعى وراءها، ففي عرف الصحراء "الذهب يعمي الجميع، الذهب يفسد أفضل الأخلاق... الذهب سبب كل اللعنات "(الكوني إبراهيم، 1992، ص144)

تُفتتح الرواية بمشهد جميل يسلط الضوء على الهدية الرائعة التي تلقاها (أوخيد) من زعيم قبائل آهجار، الهدية كانت المهري (الأبلق)، الذي لم يكن في ذلك الوقت سوى مهر صغير، ومن هنا تنشأ علاقة حميمة بين (أوخيّد) ومهره (الأبلق)، الذي أصبح مصدر فخر له، ولطالما تباهى بأصالته وبسلالته النادرة قائلا:"هل سبق لأحدكم أن شاهد مهريا أبلق؟ ويجيب نفسه لا، هل سبق لأحدكم أن رأى مهريا ينافسه في الكبرياء والشجاعة والوفاء؟ "لا" هل سبق لأحدكم أن رأى غزالا في صفة مهري؟ "لا" هل رأيتم أجمل أنبل؟ "لا، لا، لا" اعترفو أنكم لم تروه ولن تروه... " (الكوني إبراهيم ، التبر، 1992، ص7)

يكبر(الأبلق) ويتزايد معه تعلُّق (أوخيّد) به، حتى يصبح المهر جزءاً لا يتجزأ من حياته، حيث يبلغ التماهي ذروته ليصبح "أوخيّد" و"الأبلق"جسدان لروح واحدة، بل روح واحدة في جسدين مختلفين "هما اثنان في الجسد، ولكنهما واحد في الروح ، والروح التي توجد في جسدين لها فرصة أكبر في النجاة " (سعيد الغانمي، رواية التبر رأس مال الصحراء الرمزي، 2009)

في إحدى الغزوات، يُصاب المهري بالجرب، فيسعى (أوخيّد) جاهداً لإيجاد علاج ينقذه من مرضه اللعين وبدافع اليأس والأمل، يلجأ إلى (الشيخ موسى)، الرمز الروحي في القبيلة، طالبا منه النصيحة، يوجهه الشيخ إلى استخدام نبتة "آسيار" التي تنمو في منطقة نائية تدعى "قرعات ميمون"، ينطلق (أوخيّد) مع مهرة المريض في رحلة شاقة محفوفة بالمخاطر، يواجهان الموت معا، لكن سرعان ما تعود المياه إلى مجاريها بعد مرورهما بتلك التجربة القاسية، يقول –في حالة يأس– معاتباً ربه:"ولكن يا ربي: هل من الضروري أن يمرَّ الشفاء عبر الجحيم؟ هل يعدم الخلاص إلا في أقصى الألم؟ هل ثمن الإثم فادح إلى هذا الحد؟ هل الأنثى بلوى إلى هذا الحد؟ هل عين الحسد شريرة وقاتلة؟"(الكوني إبراهيم، 1992، ص40) وفي هذا إشارة واضحة إلى شدة الألم الذي كان يعاني منه المهري في مرضه كيف أثر نفسيا على (أوخيّد)،كما يصور الأنثى على أنها رمز للفتنة واللعنة.

رحلته المليئة بالمعاناة والتحديات، وآلام مهريه التي ترافقه أينما حلّ، تُجسد تجربة إنسانية فريدة، عطشه الشديد وإنقاذ مهريه له عبر إخراجه من البئر ترمز إلى الوفاء والتضامن بين الإنسان والحيوان، في النهاية يُشفى المهري، ويعود (أوخيّد) منتصرا ومفعما بالفخر ليبدأ صفحة جديدة من حياته.

يعاني (أوخيّد) قسوة الحاجة التي دفعته إلى رهن مهريَّه (الأبلق)- وهو أغلى ما يملك- لابن عم زوجته، في مقابل جمل يسد رمق عائلته، لكن (الأبلق) يرفض البقاء بعيدا عن صاحبه، ما يدفع ابن العم إلى طرح شرط قاسٍ، وهو إعفاؤه من الرهن إذا طلّق زوجته (أيور)، وفي نهاية المطاف يرضخ (أوخيّد) للأمر ويطلّقها كي يستعيد المهري، ومعه كيس من الذهب يمنحه إياه ابن العم رغم رفض (أوخيّد)،لكن القصة سرعان ما تنتشر في الصحراء كانتشار النار في الهشيم، حيث يُشاع على (أوخيّد) بأنه الرجل الذي باع زوجته مقابل كيس من الذهب، لكن الأمور لم تتوقف هنا، حيث يعود (أوخيّد) لينتقم بقتل ابن عم زوجته وهو يستعد للزواج من (أيور)، هذه الحادثة أشعلت نيران الثأر في قلوب أبناء القبيلة الممتدة من تمبكتو، الذين يسعون للانتقام والحصول على مكافأة مالية ثمنها هو موت (أوخيّد)، يبدأ المطاردون بملاحقة (أوخيّد) بلا هوادة حتى يتمكنوا من الإمساك بمهريَّه، وعند إمساكهم به قاموا بتعذيبه لإجباره على الاستسلام، وما إن نزل لهم أخيرا، حتى نفذوا فيه حكمهم القاسي، بتعليقه بين جملين يشطرانه إلى نصفين في مشهد دراماتيكي صارخ.

وفي الأخير تُختتم الرواية بنهاية مأساوية، حيث يظهر "التبر" بوصفه رمزاً يجسد فوضى الصحراء، فتحل اللعنة ويكون سبباً في موت حامله، وكذلك في مصرع (أوخيّد) وجمله المهرِي، وإذا أعدنا النظر في الرموز التي تحفل بها الرواية، نجد أن هذه الرموز تتسم بالوضوح والإيحاء، وهي مستمدة من صِلاتها الوثيقة بالبيئة الصحراوية الفسيحة، فعلى سبيل المثال، اختيار الكوني لاسم "موسى" لم يكن عشوائيا، فهو يشير ضمنيا إلى النبي موسى عليه السلام ومعجزاته، خاصة شفاء الجمل المهرِي الذي حمل دلالة رمزية واضحة، كما أن العبارات التي جاءت على لسان (أوخيّد) تعكس حبّه العميق للانعتاق والتحرر، حتى من الروابط التقليدية مثل الزوجة والأبناء، لصالح ارتباطه الوثيق بالمهرِي، يحمل هذا التوجه دلالات عميقة تشير إلى أن المرأة عنصر محوري في الأحداث المأساوية، فهي تُصوَّر كسبب مباشر لجرب المهرِي وما تبعه من ابتعاد عن القبيلة وتفككها فيما بعد، كما أن الرواية لم تخلُ من إشارات دقيقة تُحاكي الواقع المعاصر، كأن الروائي يحاول أن يقول لو أن القبائل تشتّتت في هذه الصحراء الشاسعة لما كان هناك نزاعات أو خلافات بين الأخ وأخيه، ولما كانت هناك حروب ونزاعات من أجل شهوة الحكم والزعامة والسلطان.

وقد اعتمد الكوني في روايته على لغة شعرية محملة بالحِكم والرموز، نسج من خلالها عالماً تتداخل فيه الأسطورة والواقع منها قوله:" الصبر تعويذة ضد القدر، الصبر هو الحياة" (الكوني إبراهيم، 1992، ص39) الحكمة المستوحاة من هذا المقطع السردي تحثنا على تجنب الاستسلام للراحة والكسل والاعتياد عليهما، لذلك من الضروري التحلي بالنشاط والعمل المستمر حتى لا يصبح الكسل عادة تسيطر على حياتنا وتؤدي إلى نتائج غير مرغوبة.

"في الشباب ينفتح الطيش ولا تحل الحكمة والمعرفة إلا في العجز والشيخوخة. فما فائدة الحكمة بدون شباب، وما فائدة معرفة بدون حياة؟" (الكوني إبراهيم، 1992، ص44-45)؛ ففي مرحلة الشباب تتدفق الحماسة وتتغلب النزوات، بينما لا تُشرق الحكمة والمعرفة إلا في خريف العمر ومرحلة الشيخوخة، ولكن ما جدوى الحكمة إذا كانت بلا طاقة الشباب؟ وما قيمة المعرفة إذا افتقرت إلى نبض الحياة؟

"فالسيف الذي لا يُستعمل طويلا يعلوه الصدأ" (الكوني إبراهيم، ص93.) تُبرز الحكمة الواردة في هذا المقطع السردي أهمية الابتعاد عن الراحة المفرطة والخمول، وتجنب الاعتياد عليهما، لذلك من الضروري الاستمرار في العمل والنشاط حتى لا يتحول الكسل إلى عادة تؤدي بنا إلى نتائج وخيمة تضر بالفرد والمجتمع على حد سواء.

"لن تصطاد الصقر إلا إذا عبثت بعشه" (الكوني إبراهيم، 1992، ص157) بهذه الحكمة اختتم الكوني روايته (التبر) حكمة استغلها أتباع "دودو "للإيقاع بـ(أوخيد)، الذي تحصن في قمة الجبل، فما كان منهم إلا أن قاموا بكي جمل (أوخيد) (الأبلق) بالنار، مستغلين معرفتهم المسبقة بتعلقه الشديد بجمله هذا، حيث كانوا يدركون أن الصحراء قد لقّنت فرسانها درسا مفاده أن الفارس الحقيقي لا يهجر

مهريه مهما كانت التضحيات، وجاءت الأحداث لتؤكد صدق هذه القاعدة، حيث اختار (أوخيد) الاستسلام، ضاربا بذلك أروع الأمثلة في الإخلاص، حينما ضحّى بنفسه في سبيل حماية جَمله الأبلق.

تتجلى فلسفة العزلة بوضوح في اختيار شخصية (أوخيّد) الابتعاد عن المناطق الحضرية واللجوء إلى الصحراء الشاسعة، بالإضافة إلى قراره بالتخلي عن زوجته، وهو ما يعكس عددا من الرموز التي تؤكد على هوية الشخصية الصحراوية، فمنذ البداية يظهر ميل هذه الشخصية إلى التحرر والانعتاق الكامل من قيود الحياة التقليدية، وهذا ما دفعه في النهاية إلى التضحية بحياته، لكنه –رغم ذلك– ظل متمسكا بمبادئه ووفائه لمهريه، وعندما أدرك أن الأنثى والأبناء يمثلون نوعا من القيود، اختار التحرر منها و قد نجح في ذلك، وكأن الكوني–من خلال هذا الطرح– يشير إلى الضغوط التي تفرضها الحياة على الإنسان، هذه الضغوط قد تدفعه للتنازل عن جزء من قناعاته وقيمه بسبب الالتزامات المرتبطة بالأبناء والزوجة والاهتمام بالمظاهر الدنيوية، إلا أن الخلاص الحقيقي–كما يظهر في الرواية– لا يتحقق إلا عبر التحرر من هذه القيود أولا ثم عبر اللجوء إلى الصحراء رمز الحرية والانعتاق.

تحمل الرواية دلالات رمزية عميقة تتجلى في العبارات والأسماء الموحية، تتمحور فكرتها الأساسية حول تصوير الصحراء كرمز للنقاء والقداسة والطهر، أما ما تبقى (التبر، الأنثى) فهي تُجسد ما يلوث هذا الطهر، وهذه القداسة، تعكس الرواية وجهة نظر فلسفية ترى في المرأة السبب في نزول آدم من الجنّة، وكأن الكاتب يسعى إلى التأكيد على أن الحرية الحقيقية للإنسان لا تتحقق إلا بالتحرر من قيود المال والمرأة.

4. الأسطورة كأداة فلسفية للإفصاح عن هوية المكان :

تُعد الأسطورة في أدب إبراهيم الكوني أداة فلسفية لفهم جوهر الوجود الإنساني، حيث يستخدمها الكوني في رواياته، خاصة في "نزيف الحجر"، لفهم العلاقة بين الإنسان والصحراء، باعتبارها كيانا حيا يتجاوز المادة الجامدة إلى المعنى الرمزي، والصحراء هنا ليست فقط فضاء جغرافيا شاسعا، بل فضاء روحيٌّ يحمل في طياته سر الحياة والموت، والمطلق والزائل، مما يعكس فلسفة الكوني في جعل الصحراء "مسرحًا للوجود"، والإنسان فيها مجرد عابرٍ يُحاول أن يجد ذاته في فضائها الممتد.

يُبرز الكوني الأسطورة كوسيلة لإعادة بناء الهوية الصحراوية من خلال استحضار رموز مثل "الحجر" و"الحيوان" و"الصياد" و"الراعي"، حيث تتحول هذه العناصر إلى شفرات دلالية لفهم عمق الصراع بين الإنسان والطبيعة، وبين الحرية والقيد، فالراعي "أسوف" مثلا في "نزيف الحجر" يُجسد الإنسان الأصيل الذي يُحاول الانصهار مع الطبيعة، بينما يمثل الصّيّاد "قابيل" الرغبة التدميرية التي تسعى للهيمنة والسيطرة على كل شيء، مما يُحاكي الصراع الأسطوري بين الخير والشر في الفكر الإنساني منذ القديم، وفي هذا السياق، نجد أن الكوني يتقاطع مع مفاهيم فلسفية كبرى حول الحرية والوجود، حيث يُصور الإنسان الصحراوي في حالة بحث دائم عن معنى لحياته في مواجهة قسوة الطبيعة،كما أن توظيفه للأسطورة يُعيد للأدب العربي الحديث حضور الصحراء، ليس فقط كجغرافيا بل كفلسفة قائمة بذاتها، تتشابه في معانيها مع ما نجده لدى "الطيب صالح" في تصويره للعودة إلى الجذور والهوية، أو "لدى عبد الرحمن منيف" في تصويره لغربة الإنسان في مواجهة المدن المتغيرة والصحراء الباقية كحقيقة ثابتة.

ويؤكد الكوني في "نزيف الحجر" أن الصحراء ليست فقط فضاء جغرافيا، بل كيانا أسطوريا يحمل أسرار الكون، حيث يقول: "إن من لا يؤمن بسر الصحراء لا يستحق أن يعيش فيها". وهذا البعد الفلسفي يُعطي للأسطورة دورا يتجاوز الحكاية، لتُصبح وسيلة تأملية لفهم المصير الإنساني، وفي هذا التوظيف، يتقاطع الكوني مع "جبرا إبراهيم جبرا" في "البحث عن وليد مسعود"، حيث يتم استدعاء الأسطورة لفهم الذات والآخر والبحث عن الهوية المفقودة، ويذهب الباحث "شريف عكازي" إلى القول بأن الأسطورة عند الكوني تتحول إلى "طاقة رمزية" تُضيء النص وتُعمّق دلالاته، حيث تصبح الصحراء في أعماله مرآة لفهم الذات والكون، بما تحمله من تناقضات بين القسوة والجمال، والخطر والأمان.

5. خاتمة:

خلصت هذه الدراسة إلى أن توظيف الأسطورة في الكتابة الروائية عند إبراهيم الكوني، كما تجلّى في روايتي "التبر" و"نزيف الحجر"، تُعد من أبرز ملامح خصوصية تجربته الأدبية المتفرّدة، حيث استطاع أن يوظف الموروث الأسطوري والرمزي للصحراء في بناء نصوص روائية ذات طابع فلسفي عميق، الصحراء عند الكوني ليست مجرد مكان أو خلفية للأحداث، بل هي كيان حيّ قائم بذاته، يتداخل فيه المقدس بالدنيوي، والرمزي بالوجودي، لتصبح فضاء للبحث عن الهوية والمعنى والوجود.

أظهر التحليل كيف تتحول الرموز الأسطورية مثل "الجمل"، "الحجر"، "الصياد"، "الدم"، و"الصحراء" إلى أدوات لفهم فلسفة الكوني حول الإنسان، الحرية، والمصير، حيث تتحول هذه العناصر إلى إشارات رمزية عميقة تكشف عن جوهر الصراع الوجودي الذي يعانيه الإنسان الصحراوي في مواجهة قسوة الطبيعة، وقيود العادات، وطغيان السلطة، وسؤال القدر.

كما أظهرت الدراسة كيف يوظف الكوني الأسطورة كآلية لإعادة إنتاج الأسئلة الكبرى حول الإنسان والكون، مثل الخير والشر، الحياة والموت، الحرية والعبودية، من خلال شخصياته الروائية، لا سيما (أوخيد) في "التبر" و(أسوف) في "نزيف الحجر"، اللذين يمثلان الإنسان الباحث عن المعنى، والرافض للذوبان في منظومة الفساد المادي والسلطة.

لقد أسهم توظيف الكوني للأسطورة في تعميق البناء السردي للرواية العربية الحديثة، حيث أضفى على النصوص بعدا ميتافيزيقيا وتأويليا وربط بين التراث الشعبي الطوارقي والهموم الإنسانية العامة، ما جعل أعماله تحتل مكانة مميزة في السرد العربي.

وبناء على ذلك، تُعد دراسة الأسطورة في أعمال الكوني مدخلا مهما لفهم فلسفة الصحراء في الأدب العربي الحديث، كما تمثل نموذجا لدراسة الأدب بوصفه مجالا يعكس تفاعلات الإنسان مع الكون والمصير من منظور رمزي وفلسفي عميق.

. النتائج:

– **أوّلا:** توصلت الدراسة إلى أن إبراهيم الكوني يُوظف الأسطورة ليس كمادة حكائية جاهزة بل كأداة فلسفية تعيد إنتاج الأسئلة الكبرى حول الوجود الإنساني.

– **ثانيا:** تتجسد الأسطورة في أعمال الكوني من خلال رموز الصحراء مثل "الجمل"، "الصخرة"، و"الحجر"، مما يعكس نظرة فلسفية للصحراء كمكان يتجاوز الجغرافيا ليُصبح فضاء روحيا وميتافيزيقيا.

– **ثالثا:** ظهر أن الكوني يُعيد توظيف الأسطورة لتأكيد قيمة الحرية ومفهوم الفداء، حيث تتحول شخصيات مثل "أوخيد" و"أسوف" إلى رموز للبطل التراجيدي الباحث عن المعنى.

– **رابعا:** كشفت الدراسة عن العلاقة بين الأسطورة والهوية في روايات الكوني، إذ تُسهم الأسطورة في تشكيل ملامح الشخصية الصحراوية المتجذرة في التراث، والباحثة عن ذاتها وسط قسوة الطبيعة والصراعات الإنسانية.

– **خامسا:** أكدت الدراسة أن توظيف الأسطورة في الرواية يُثري النص بالرمزية والتأويل، ويُضفي عليه طابعا فلسفيا يعزز من قيمته الفنية والمعرفية في الأدب العربي الحديث.

6. قائمة المصادر والمراجع:

أولا–المصادر:

1– الكوني،إبراهيم.(1992)، التبر، بيروت– لبنان: التنوير للطباعة والنشر – دار تاسيلي للنشر والإعلام ،ط3.

2– الكوني،إبراهيم .(1992)، نزيف الحجر بيروت– لبنان: التنوير للطباعة والنشر – دار تاسيلي للنشر والإعلام ،ط3.

ثانيا– المراجع

3- النصير،ياسين.(2008)، ما تخفيه القراءة، دراسات في الرواية والقصة القصيرة.العراق :الدار العربيّة للعلوم ناشرون .ط1.

4- إبراهيم، عبد الله.(2005)، الرواية العربية وتعدد المرجعيات الثقافية، مجلة علامات 23،1 جانفي 2005.

5- الصالح، فخري.(2009)، في الرواية العربية الجديدة، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، الجزائر.

6- الغانمي، سعيد.(2000)، ملحمة الحدود القصوى ، المخيال الصحراوي أدب إبراهيم الكوني ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ط1.

7- الغانمي،سعيد.(1998) رواية التبر رأس مال الصحراء، مجلة نزوى ، الموقع، www.nizwa.com ، تاريخ المشاهدة: 20، 06، 2025 .

8- بن سالم،عبد القادر.(2013).بنية الحكاية في النص الروائي المغاربي، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، ط1.

9- زغريت، خالد.(2011) جماليات ميثولوجيا الصحراء في رواية "نزيف الحجر" لإبراهيم الكوني، الدستور، العدد17461، مارس، تاريخ التصفح (2025/06/20).

10- يقطين، سعيد.(1985)، القراءة والتجربة، حول التجريب في الخطاب الروائي الجديد بالمغرب، الدار البيضاء، دار الثقافة،ط1.

11- وتار، محمد رياض.(2002) توظيف التراث في الرواية العربية، منشورات إتحاد الكتاب العرب، ، دمشق ، سوريا، ط1.

12- لكرومي، لحسن.(2006)، جماليات المكان في الرواية المغاربية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة، جامعة وهران،الجزائر.

13- عتيق، مديحة. (2005)، توظيف الأسطورة في رواية نزيف الحجر لإبراهيم الكوني، مجلة الموقف الأدبي، العدد 406، شباط.

14- عبد المعين خان، محمد.(1937)، الأساطير العربية قبل الإسلام ، مطبعة الحنة للتأليف والترجمة والنشر ،د.ط ، القاهرة.